

الباب الثاني

الحقيقة عند الغزالي

الفصل الأول : وسيلة الحقيقة عند الغزالي .

الفصل الثاني : جوهر الحقيقة عند الغزالي .

الفصل الأول

وسيلة الحقيقة عند الغزالي*

مر بنا أن الغزالي ارتأى طريقة المتصوفة في اكتساب المعارف ، هي الطريقة القويمة . والآن نريد أن نزيد هذه الطريقة إيضاحاً وبسطاً . وهي جديرة بأن تُبحث ، وأن يوقف معها وقفات ليست بالقصيرة ؛ لأنها ذات شأن هام في حياته الفكرية . فهي التي انتشلته من وهدة الشكوك التي تردى فيها ، وهي التي بسببها فضّل المتصوفة على الفلاسفة والمتكلمين . وهي عنده مصدر العقيدة الدينية .

قال صاحبها مقدمة المنقذ^(١) :

[وبالرغم من أن الغزالي ، قد اقتبس فكرة الكشف هذه ، من طريقة الصوفية ؛ فإنه امتازعن غيره . ، يجعلها مفتاح العلوم ، ومصدر العقيدة الدينية] .

قال الغزالي^(٢) :

[إن العلوم التي ليست ضرورية ، وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال ؛ يختلف الحال في حصولها .

فتارة تهجم على القلب ، كأنه التي فيد من حيث لا يدري .
رتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم .

فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل ؛ يسمى إلهاماً .
والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً .

* لم أر بأساً في استمداد معلومات هذا الفصل ، من كتاب الإحياء وغيره ، كيزان العمل ، لأمرين
١ - أن هذه النظرية لا يراها الغزالي سراً ، يضمن بنشره على الجمهور ، بل هو يود لو عمت معرفتها
الجميع ، ولم يأخذوا العلم إلا عن طريقها كما سيأتى في ثنايا البحث .
ب - أن هذه النظرية موجودة في كتاب معارج القدس ، بنفس المعلومات التي اقتبسناها من الكتب
الأخرى ، غير أنها في تلك الكتب أونسح وأوقى .

(١) ص ٤٩ .

(٢) الإحياء ج ٨ ص ٣٢ .

ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ، ينقسم :
 ١ - إلى ما لا يدري العبد أنه من أين حصل له ؟ وكيف حصل ؟
 ٢ - وإلى ما يطلع معه على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب .

والأول يسمى إلهاماً ونفثاً في الروح .
 والثاني يسمى وحياً ويختص به الأنبياء .
 والأول يختص به الأولياء والأصفياء .
 والذي قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال ، يختص به العلماء .
 وحقيقة القول فيه ، أن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها ، وإنما حيل بينه وبينها ، بالأسباب الخمسة التي سبق ذكرها^(١) فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب ، وبين اللوح المحفوظ . الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة .
 وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب ، يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها .

والحجاب بين المرأتين تارة يزال باليد ، وأخرى يزول بهبوب رياح تحركه ، وكذلك قد تهب رياح الألفاظ ، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فيتجلى فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام ، فيعلم به ما يكون في المستقبل ، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت . فبه ينكشف الغطاء في اليقظة ... وحين يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ؛ يلمع في القلوب من وراء ستر الغيب ، شيء من غرائب العلم . تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالي إلى حد ما ، ودوامه في غاية الندور] .

فهذه الفقرات تدل على أن أساس المعرفة ، سواء معرفة الصوفية والأنبياء ومعرفة العلماء ؛ هو محاذاة مرآة القلب للوح المحفوظ ، وإزالة الحجاب الحائل بينهما . فالعلماء يحاولون إزالته باكتسابهم . والأنبياء والأولياء تهب رياح الألفاظ فتزيله لهم من غير بذل عناء منهم ، ولكن في النهاية بعد إزالة الحجاب تكون الحال

(١) سيأتى القول فيها .

عند الطرفين واحدة ، وهي الاطلاع على اللوح المحفوظ .
ويستمر الغزالي فيصرح بما استنتجناه قائلًا :

[فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ، ولا في محله ، ولا في سببه] .
أى لأن العلم في الحالين ، هو النقش الذي انطبع في مرآة القلب ، عند
مقابلة مرآة اللوح المحفوظ ، من غير حجاب بينهما .

ولأن محل العلم في الحالين هو القلب .

ولأن سببه في الحالين هو زوال الحجاب .

[ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب] .

أى لأن صاحب الإلهام لا يزيل الحجاب ، بل العناية الإلهية تكفيه مؤونة
ذلك ، بخلاف المكتسب ، فعليه أن يحاول رفع الحجاب وإزالته .

[ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك ، بل في مشاهدة الملك الملقى
للعلم . فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة .

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ؛
فلذلك لم يحرصوا على دراسة^(١) العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن
الأقويل والأدلة المذكورة .

بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق
كلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى .

ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره
بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في
القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب
حجاب الغيرة ، بلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية .

فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة مع الإرادة
الصادقة ، والتنظن التام ، والرصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وقاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم
والدراسة ، والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا ، والتبري عن علائقها ، وتفرغ
القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى ، فمن كان لله كان الله له [.

(١) صرح الغزالي في « ميزان العمل » بأن التصوف مرحلة تأتي بعد انتهاء مرحلة النظر انظر
ص ٢٢٨ ط دار المعارف وانظر المص لآب نصر السراج ص ٤٠ دار الكتب الحديثة .

ثم لا يكتفى الغزالي بالمقارنة التي جاءت عرضاً أثناء هذا الفصل بين علم العلماء وعلم المتصوفة ، فيعقد لذلك فصلاً في نفس الكتاب . ويزى أن نقتبسه هنا لندون مالنا عليه من ملاحظات ، ولنبين وجوه الاختلاف بين الفصلين .
قال (١) :

[اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضاً خارج عن إدراك الحس . وما ليس مدركاً بالحواس ، تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين .
أحدهما :

أنه لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض ، احتمال أن يساق إليه الماء من فوقه ، بأنهار تقع فيه . ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ، ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فيتفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر .
فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار .

وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس ، والاعتبار بالمشاهدات ، حتى يمتلىء علماً ؛ ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة .
وغض البصر . ويعمد إلى عمق القلب ، بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه .
حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله .

فإن قلت ، فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه .
فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة ، بل القدر الذي يمكن ذكره : أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقربين . فكما أن المهندس يصور أبنية الدار في بياض ، ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السماوات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره ، في اللوح المحفوظ ؛ ثم أخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة ؛ والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته ، تتأدى منه صورة

أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ، ثم يغض بصره ، يرى صورة السماء والأرض في خياله . حتى كأنه ينظر إليهما ، ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو ، في نفسه ، لوجد صورة السماء والأرض في نفسه ، كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ؛ ثم يتأدى من خياله ، أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء ، التي دخلت في الحس والخيال .

والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال ، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الإنسان وقلبه ، والعالم الموجود في نفسه موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ .
فكأن للعالم أربع درجات في الوجود .

وجود في اللوح المحفوظ ، وهو سابق في الوجود على وجوده الجسماني .
ويتبعه وجوده الحقيقي .

ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي : أعني وجود صورته في الخيال .
ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي : أعني وجود صورته في القلب .
وبعض هذه الوجودات روحانية ، وبعضها جسمانية ، والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض .

فالقلب يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته : تارة من الحواس ، وتارة من اللوح المحفوظ ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها ، وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها ، فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه . فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض .

ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة عن المحسوسات ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ ؛ كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار ، منع ذلك من التفجر من الأرض ؛ وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس . لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .
فإذن للقلب بابان .

باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة .
 وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة ، وعالم
 الشهادة والملك أيضاً يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة .
 فأما افتتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس ، فلا يخفى عليك .
 وأما افتتاح بابه الداخلى إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ ، فيعلم
 علماً يقينياً بالتأمل في عجائب الرؤيا وفي اطلاع القلب في النوم على ما سيكون في
 المستقبل ، وكان في الماضى ، من غير اقتباس من جهة الحواس .
 فإذا اختلف بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا .
 وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب ، من الباب المفتوح إلى عالم
 الملكوت ، وعلوم الحكماء تأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك [.
 ولنا على هذا ملاحظات :

الأولى :

أنه يقرر أن علم الأولياء والصوفية ، يأتى عن طريق اطلاعهم على اللوح
 المحفوظ مباشرة ، وهو المسمى بعالم الملكوت والغيب .
 أما علم الحكماء والعلماء ، فيأتى عن طريق الحواس الناقلة عن عالم الملك
 والشهادة ، وعالم الملك والشهادة يحاكي عالم الملكوت والغيب ، نوعاً من المحاكاة
 لا كل المحاكاة ، كما صرح هو .
 وإذا تكون الصورة المنقوشة في النفس ، المأخوذة عن عالم الملكوت والغيب ،
 وهى علم الأولياء ، مخالفة للصورة المأخوذة عن عالم الملك والشهادة ، بطريق
 الحواس ، وهى علم العلماء ، ضرورة أن عالم الملك والشهادة لا يحاكي تمام المحاكاة
 عالم الملكوت والغيب ، هذا من ناحية .
 ومن ناحية أخرى ، فإن علم الحكماء مأخوذ بواسطة الحواس ، وقد سبق
 للغزالي أن رفع الثقة بها ، ولم يرضها طريقاً صحيحة للوصول إلى المعرفة اليقينية .
 فإذا الغزالي يجوز الخطأ على الحواس ، حين تتقل صورة العالم المحسوس ،
 أعنى عالم الملك والشهادة ، إلى النفس ، حتى على فرض أنه يحاكي عالم الملكوت
 والغيب تمام المحاكاة .

ولذا كان الأمر كذلك فسيكون علم العلماء مخالفاً لعلم الصوفية . لاختلاف
الأصليين اللذين ينتقل عندهما العلم ؛ واختلاف وسائل النقل .
فكيف جاز للغزالي أن يقول فيما سبق :
[ولم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم] .

الثانية :

أن الغزالي يصرح هنا أن علم الصوفية ينبع من القلب : أعني لا يحتاج إلى
الحواس ، بل تطلع النفس على اللوح المحفوظ ، في حالة تكون الحواس فيها
معطاة تماماً .

أما علم العلماء فإنه يأتي عن طريق الحواس ، فيكون السبب في اكتساب
العلمين مختلفاً ، فكيف جاز للغزالي أن يقول فيما سبق :
[ولم يفارق الإلهام الاكتساب في سبب العلم] .

الثالثة :

أن حصر الغزالي الفرق بين العلمين في سبب زوال الحجاب يفيد - وإن
لم يصرح - أن الحجاب الذي يمنع العلم عن كلا الفريقين واحد ، مع أنه مختلف
على مذهبه تمام الاختلاف ، لأنه بالنسبة للصوفية هي المعاصي التي ترين على
مرآة القلب . فلا تنطبع صورة اللوح المحفوظ فيها . وبالنسبة إلى العلماء غفلة
الحواس وعدم تغلغلها في مخبئات الكون .

الرابعة :

أن الغزالي يقول : إن العلماء يزبلون بأنفسهم الحجاب الذي يحول بينهم
وبين العلم ، أما الصوفية فإن رياح الألفاظ تهب فترفع هذا الحجاب من غير
بذل عناء منهم في رفعه . مع أن هذا الحجاب ما دام هو حب الدنيا بالنسبة
إليهم ، فلا بد أن يفرغوا الوسع في إزالته . وإن ما يبذلونه من العناء في سبيل
رفع حجابهم لأشد بكثير جداً مما يبذله العلماء ؛ لأنه لا بد للصوفية من أن يصلوا
إلى حال ، يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ودون هذه الحال خرط القتاد .
الحقيقة في نظر الغزالي

وقد مر بنا حديث ما لاقاه الغزالي من أزمة نفسية - حين هم بالدخول في طريقهم - مع أنه من أبطاهم الذين يشار إليهم بالبنان ، فما بالك بعامتهم ؟ .
أما العلماء فيكفهم أن يتحللوا بعض الشيء من الشواغل في أوقات خاصة يخاضون فيها إلى عقولهم ، وحواسهم ، وكتبهم ، وأسائرتهم ، أما فيما عدا هذه الأوقات ، فهم أناس ككل الناس يتزوجون ، ويلتقون بالناس ، ويعاملونهم بالبيع والشراء ، والأخذ والعطاء . وبالحملة يدخلون في فلك الحياة الدائرة ، ويطبق عليهم قانونها العام .

الخامسة :

أن الغزالي في الفصل السابق يقرر أن الفريقين في النهاية بعد سلك كل مسلكه الخاص به ، يطلع على اللوح المحفوظ ، وهنا يقرر أن الحيات الحاصلة عن الحواس ، تكون حجاباً للعلماء عن مشاهدة اللوح المحفوظ .
وإتماماً للفائدة نسوق باقي النص :

[المثال الثاني :

يعرفك الفرق بين العاملين ، أعنى عمل العلماء ، وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم ، واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها . وتصفيتها وتصقيلتها فقط .

فقد حكى أن أهل الروم وأهل الصين ، تباهاوا بين يدي الملوك ، بحسن صناعة النقش والصور . فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة . لينقش أهل الصين منها جانباً ، وأهل الروم جانباً ، ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ؛ ففعل ذلك .

فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر ، ودخل أهل الصين من غير صبغ ، وأقبلوا يجردن جانبهم ويصقلونه .

فلما فرغ أهل الروم ، ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً ، فعجب الملك من قولهم ، وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ ، فقيل وكيف فرغتم

من غير صيغ ؟ ! فقالوا : وما عليكم ؟ ! ارفعوا الحجاب ، فرفعوا ، وإذا بجانبهم يتلأأ منه عجائب الصنائع الرومية ، مع زيادة إشراق وبريق ، إذ كان كالمراة المحلوة ، لكثرة التصقيل ، فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل .

فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه ، وتركيبته وصفائه ، حتى يتلأأ فيه جليلة الحق بنهاية الإشراق ، كفعل أهل الصين .

وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ، ونقش العلوم ، وتحصيل نقشها في القلب ، كفعل أهل الروم .

فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت ، وعلمه عند الموت لا ينمحي ، وصفائه لا يتكدر [.

وقد عقد الغزالي فصلاً في كتابه « ميزان العمل ^(١) » ، لبيان الأولى من الطريقتين طريق العلماء ، وطريق المتصوفة ، قال فيه :

[فإن قلت : فقد مهدت للسعادة طريقين متباينين ، فأيهما أولى عندك ؟ ! فاعلم : أن الحكم في مثل هذه الأمور ، بحسب الاجتهاد الذي يتتضيه حال المجتهد ، ومتمامه الذي فيه .

والحق الذي يلوح لي — والعلم عند الله فيه — أن الحكم بالذني أو الإثبات في هذه على الإطلاق ، خطأ ، بل يختلف بالإضافة إلى الأشخاص والأحوال .

فكل من رغب في السلوك « فقد كبر شأنه ^(٢) » ، فالأولى به أن يقتنع بطريق الصوفية ، وهو المواظبة على العبادة ، وقطع العلائق ، فإن البحث عن العلوم الكسبية لتحصل ملكة نابتة في النفس شديد ، ولا يتيسر إلا في عنفوان العمر ، والتعلم في الصغر كالنقش في الحجر ، ومن العناية رياضة الهرم ، وقيل لأحد الأكابر ، من أراد أن يتعلم شيئاً ما يفعل ؟ ! فقال « اغسل مسحاً ^(٣) فعساه يبيض »

وقد خرج من هذا : أن الأولى بأكثر الخلق الاشتغال بالعمل ، والاقتصار

(١) ص ٤٩ .

(٢) كذا في الأصل ، وصوابها « بعد كبر سنه » .

(٣) كذا في الأصل .

من العلم على القدر الذى يعرف به العمل ، فإن الأكثر لا ينتبهون لهذا الأمر ، فى عشقون الشباب .

وإن تنبه فى عشقون شبابه ؛ نظر إلى طبعه وذكائه ، فإن علم : أنه لا يستعد لنهيم الحقائق العقلية الدقيقة ، وجب عليه أن يشتغل بالعمل أيضاً ؛ فلا فائدة فى اشتغاله بالعلوم النظرية ، وهم الأكثر من الأقل الذى تنبناه .
فإن كان ذكياً قابلاً للعلوم ، فإن لم يكن فى بلده أو فى العصر مشتغل بالعلوم النظرية ، مترق عن رتبة تقليد من سبقه ، فالأولى به العمل ؛ فإن هذه لا يمكن تحصيلها إلا بعمل ، فليس فى القوة البشرية فى شخص واحد الوصول إليها إلا قليلاً بطول الزمن .

ولذلك لو لم يكن علم الطب مثلاً صار منسقاً مرتباً ، متقماً بالحواطر المتعاونة فى الأزمنة المتطاولة ، لافتقر أذكى الناس إلى عمر طويل . فى معرفة علاج عاة واحدة ، فضلاً عن الجميع .

والغالب فى البلاد الخاو عن مثل هذا العالم المستقل .

فإذن لم يبق إلا قليل من قليل ، وهو ذكى ، تنبه فى عشقون عمره لهذا الأمر ، وهو مستعد لفهم العلوم ، وصادف عالماً مستقلاً بالعلوم . تحقيقاً لا اسماً ، وحسبة لا رسماً ، كما ترى من أكثر العلماء .

فهم إما مقلدون فى أعيان المذاهب ، أو فى أعيان تلك المذاهب وأداة تلك المذاهب جميعاً ، على الوجه الذى تلقوه من أرباب المذاهب .

ومن قلده أعمى فلا خير فى متابعة العميان واتباعهم .

أو شاب نشأ فى طلب العلم ، وهو ذكى فى نفسه ، وتنبه له بعد الارتياض بأنواع العلوم ، ولكن بهذا النوع من العلم الذى تنبه له :

فمثل هذا الشخص مستعد للطريقين جميعاً . فالأولى به أن يقدم طريق التعلم فيحصل من العلوم البرهانية ، ما للقوة البشرية إدراكه ، بالجهد والتعلم ، فقد كفى المؤونة فيه بتعب من قباه . فإذا حصل ذلك على قدر إمكانه ، حتى لم يبق علم من جنس هذه العلوم إلا وقد حصاه . فلا بأس بعده أن يؤثر الاعتزال عن الخلق ، والإعراض عن الدنيا ، والتجرد لله ، وأن ينتظر فعساه يفتح له بذلك

الطريق . ما التيسر على سالكنى هذه الطريق .
هذا ما أراد - والعلم عند الله - .

وقد يخرج منه أن الصواب لأكثر الخلق : الاشتغال بالعمل ، ومن العمل العلم العملي : أعنى ما يعرف به كلفيته ؛ فإن العلم العملي ليس بأشرف من العمل ؛ بل هو دونه ، فإنه مراد له . دون العلم الذى يراد منه المعلوم : كالعلم باللذ وصفاته . وملائكته وكتبه ورسله ، والعلم بالنفس وصفاتها . والعلم بالملكوت السموات والأرض وغيره .

فهذه العلوم نظرية وليست بعملية ، وإن كان قد ينتفع بها فى العمل على سبيل العرض . لا على سبيل القصد .

لكون الصواب فى العمل لأكثر الخلق ، استقصاه النبي صلى الله عليه وسلم ، تفصيلاً وتأصيلاً ، حتى علم الخلق الاستنجاة وكلفيته . ولما آل الأمر إلى العلوم النظرية ، أجمل ولم يفصل ، ولم يذكر من صفات الله إلا أنه ليس كمثل شئ ، وهو السميع البصير .

نعم بعد إجمال العلم ، ذكر من تعظيمه وتشريفه وتقديمه على العمل ، ما لا يكاد يحصى . كقوله : « تفكر ساعة ، خير من عبادة سنة » . وكقوله : « فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر » . إلى غير ذلك مما ورد فيه .

ثم ذلك العلم المقدم على العمل ، لا يخلو إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات . وإما أن يكون علماً سواه ، وباطل أن يكون الأول هو المراد لوجهين :

أحدهما : أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذى له العلم بالعبادة ، وإلا فهو عابث فاسق .

والثانى : أن العلم بالعمل ، لا يكون أشرف من العمل ، لأن العلم العملي لا يراد لنفسه . وإنما يراد للعمل ، وما يراد لغيره ، يستحيل أن يكون أشرف منه [.

وواضح أنه قد نخلص من هذا الفصل ، بأن الأولى بالخلق جميعاً الاشتغال بالعمل الذى هو طريق المتصوفة فى كسب المعارف والعلوم ، غير أنه رأى نقرأ قليلاً

بل أقل من القليل ، لا بأس أن يشتغلوا بطريق النظر أولاً حتى إذا انتهوا إلى الحد الذى يقف عنده النظر عادة ، عرجوا على طريق المتصوفة ليدركوا عنه ، ما أعياهم إدراكه عن طريق النظر .

وقد عقد فى كتابه الإحياء فصلاً للدفاع عن طريق الصوفية أمام من ناقشوه قائلين^(١) : [إننا لا ننكر وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى المقصد على التدور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء . ولكننا نستوعر هذا الطريق ، ونستبطن ثمرته ! ونستبعد استجماع شروطه . إذ أن محور العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر ، وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر فى غليانها » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

وفى أثناء هذه المجاهدة ، قد يفسد المزاج ، ويختلط العقل ، ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بمحقات العاوم ، نشبت بالقلب خيالات فاسدة ، تطمئن النفس إليها مدة طويلة ، إلى أن يزول وينقضى العمر قبل النجاح فيها .

فكم من صوفى سلك هذا الطريق ، ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل ، لا تفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال . فالاشتغال بطريق التعلم أقرب وأوثق إلى الغرض .

وإن ذلك يضاهاى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يتعلم ذلك ، وصار فقيهاً بالوحى والإلهام ، من غير تكرير وتعليم فأنا أيضاً ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه .

ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره . بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة ، رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً . فكذلك هذا .

فلا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء ، وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد

ذلك بالانتظار ، لما لم ينكشف لسائر العلماء ، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة].
قال الغزالي في مناقشة هؤلاء :

[بيان شواهد من الشرع ، على صحة طريق أهل التصوف ، في اكتساب المعرفة ، لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد :

اعلم أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع في القلب ، من حيث لا يدري ؛ فقد صار عارفاً بصحة الطريق ، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً .
ويشهد لذلك شواهد الشرع ، والتجارب والحكايات .

أما الشواهد فقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة . ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ، ولم يوفق فيما يعمل ، حتى يستوجب النار » . وقال الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » من الإشكالات والنسبه « ويرزقه من حيث لا يحتسب » يعلمه علماً من غير تعلم ، ويفظنه من غير تجربة ، وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر في دعائه من سؤال النور ، فقال عليه الصلاة والسلام « اللهم اعطني نوراً ، وزدني نوراً ، واجعل في قلبي نوراً ، وفي قبري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً حتى قال : في شعري ، وفي بشرتي ، وفي لحمي ودمي وعظامي » وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » ما هذا الشرح ؟ ! فقال : « هو التوسعة ، إن النور إذا قذف في القلب ؛ اتسع له الصدر وانشرح » .

وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » وقال علي رضي الله عنه « ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ، إلا أن يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه ، وليس هذا بالتعلم » . وقيل في تفسير قوله تعالى « يؤتي الحكمة من يشاء » إنه الفهم في كتاب الله تعالى . وقال تعالى : « ففهمناها سليمان » خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو الدرداء يقول :

المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق ، والله إنه للحق يقذفه الله تعالى في قلوبهم . ويجريه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة . وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى . وإليه يشير قوله تعالى : « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » وقوله تعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العلم علمان . فعلم باطن في القلب ، فذلك هو العلم النافع » . وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ، فقال : هو سر من أسرار الله تعالى ، يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه ، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من أمي محدّثين ، ومعلمين ، ومكلمين وإن عمر منهم » وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدّث » يعنى الصديقين . والمحدّث هو الملهم ، والملمهم هو الذى انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسوسات الخارجة ، والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم . وقال الله تعالى : « وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون » خصصها بهم . وقال تعالى : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يعلم من كتاب . فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً ، وإنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولا درس . وهذا هو العلم الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وعلمناه من لدننا علماً » مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لديناً ، بل اللدني الذى يفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج .

فهذه شواهد النقل . ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات ، والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر ، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته : إنما

هما أخواك وأختاك . وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتاً . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت .

وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا ساريةُ الجليلِ الجليلِ ، إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه . فحذره لمعرفة ذلك . ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه ، وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى ، فنظرت إليها شذراً وتأمّلت محاسنها ، فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ، أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ ! لتوبن أو لأعزرنك ! !

فقلت : أوحى بعد النبى ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان ، وفراسة صادقة .

وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه ككلُّ على الناس ، فنادانى وقال : والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه . فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال : وهو الذى يقبل التوبة من عباده ، ثم غاب عنى ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق ، على أبى الفضل الهاشمى ، وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قمت قلت فى نفسى : من أين يأكل هذا الرجل ؟ ! ، قال : فصاح بي يا أبا العباس رُدَّ هذه التهمة الدنية ، فإن الله تعالى أظافاً خفية .

وقال أحمد النقيب : دخلت على الشبلى ، فقال : مفتون يا أحمد ! ! فقلت : ما الخبر ؟ ! قال : كنت جالساً ، فجرى بخاطرى أنك بخيل (١) ، فقلت ما أنا بخيل ، فعاد منى خاطرى وقال : بل أنت بخيل ، فقلت ما فُتِحَ اليوم على بشىء ، إلا دفعته إلى أول فقير يلقانى . قال : فما استمَّ الخاطر ، حتى دخل على صاحب المؤنس الخادم ، ومعه خمسون ديناراً ، فقال : اجعلها فى مصالحك . قال : فقمت فأخذتها وخرجت ، وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يخلق

رأسه ، فتقدمت إليه ، وناولته الدنانير ، فقال : اعطها المزين ، فقلت : إن جملتها كذا وكذا ، فقال : أو ليس قد قلنا لك : إنك بخيل !!! ، قال : فناولتها المزين ، فقال المزين : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجراً ، قال فرميت بها في دجلة ، وقلت ما أعزك أحد ، إلا أذله الله عز وجل .

وقال حمزة بن عبد الله العلوي : دخلت على أبي الخير التيناني ، واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ، ولا آكل من داره طعاماً . فلما خرجت من عنده ، إذا به قد لحقني ، وقد حمل طبقاً فيه طعام ، وقال : يا فتى كُـلْ فقد خرجت الساعة من اعتقادك . وكان أبو الخير التيناني هذا مشهوراً بالكرامات .

وقال إبراهيم الرقي : قصدته مسلماً عليه ، فحضرت صلاة المغرب ، فلم يكذب يقرأ الفاتحة مستوياً ، فقلت في نفسي ضاعت سترقي ، فلما سلم خرجت إلى الطهارة ، فقصدني سبع ، فعدت إلى أبي الخير ، وقلت : قصدني سبع ، فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني ، فتنحى الأسد ، فتطهرت ، فلما رجعت قال لي : اشتغلت بتقويم الظاهر ، فحفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم الباطن ، فخافنا الأسد .

وما حكى من تفرس المشايخ ، وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضائرهم ، يخرج عن الحصر ، بل ما حكى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام ، والسؤال منه سماع صوت الهاتف ، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر .
والحكاية لا تنفع الجاحد ، ما لم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل .

والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم ، فلا يستحيل أيضاً في اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر ؛ لاشتغاله بنفسه .

الثاني : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمور في المستقبل ، كما اشتمل

عليه القرآن ، وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون في الوجود ، شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً .

فن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان :

باب إلى خارج ، وهو الحواس .

وباب إلى الملكوت من داخل القلب ، وهو باب الإلهام والنفث في الروح ،

والوحي .

فإذا أقر بهما جميعاً ، لم يمكنه أن يمحصر العلوم في التعلم ، ومباشرة الأسباب المألوفة ؛ بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه [.

• • •

ولم يشأ الغزالي أن يغفل أمر الحجاب الذي ذكر أنه يحول بين القلب وبين اللوح المحفوظ ، وأنه : تارة يزال بالاكتساب ، وأخرى بهبوب رياح الألفاف ، فعقد له فصلاً خاصاً في الإحياء جاء فيه (١) :

[اعلم أن محل العلم هو القلب ، أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح ، وهى المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء ، وهى بالإضافة إلى حقائق المعلومات ، كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات : فكما أن للمتلون صورة ، ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ، ولتلك الحقيقة صورة ، تنطبع في مرآة القلب ، وتتضح بها . وكما أن المرآة غير ، وصور الأشخاص غير ، وحصول مثالها في المرآة غير ، فكذلك ههنا ثلاثة أمور :

١ - القلب .

٢ - حقائق الأشياء .

٣ - حصول نفس الحقائق وحضورها فيه .

فالعالم عبارة عن القلب الذى فيه يحل مثال حقائق الأشياء . والمعلوم عبارة

عن حقائق الأشياء . والعلم عبارة عن حصول المثال في مرآة القلب .
وكما أن القبض مثلاً يستدعى قابضاً كاليد ، ومقبوضاً كالسيف ، ووصولاً
بين السيف واليد ، ويسمى قبضاً . فكذلك وصول مثال العلوم إلى القلب ،
يسمى علماً ، وقد كانت الحقيقة موجودة ، والقلب موجوداً ، كما أن السيف
موجود ، واليد موجودة ، ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلًا ، لعدم وقوع السيف
في اليد . نعم القبض عبارة عن وصول السيف بعينه في اليد ، والمعلوم بعينه
لا يحصل في القلب ، فن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه ؛ ولكن الحاصل
حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتمثيله بالمرآة أولى ؛ لأن عين الإنسان لا تحصل
في المرآة ، وإنما يحصل مثال مطابق له ، وكذا حصول مثال مطابق لحقيقة
المعلوم في القلب يسعى علماً .

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصور لخمسة أمور :
الأول : نقصان صورتها كجواهر الحديد ، قبل أن يدور ، ويشكّل
ويصقل .

الثاني : نجسه وصدئه وكدورته ، وإن كان تام الشكل .
الثالث : لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها ، كما إذا كانت
الصورة وراء المرآة .

الرابع : لحجاب مرسل بين المرآة والصورة .
الخامس : للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة ، حتى يتعذر بسببه
أن يحاذي بها شطر الصورة وجهها .

فكذلك القلب مرآة مستعدة ، لأن يتجلى فيها حقيقة الحق في الأمور
كلها ، وإنما خلعت القلوب عن العلوم التي خلعت عنها لهذه الأسباب الخمسة :
١ - نقصان في ذاته ، كقلب الصبي ، فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه .
٢ - لكدورة المعاصي والنجس ، الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة
الشهوات ؛ فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه ، فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته
وتراكمه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « من قارف ذنباً فارق عقله
لا يعود إليه أبداً » أي حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها ؛ إذ غايته أن يتبعه

بحسنة يححوه بها ، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة ، لازداد لا محالة إشراق القلب ؛ فاما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة . لكن عاد القلب إلى ما كان قبل السيئة ولم يزد بها نوراً ، فهذا خسران مبين ، ونقصان لا حيلة فيه ، فليست المرأة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة ، كالتى تمسح بالمصقلة لزيادة جلالها من غير دنس سابق ، فالإقبال على طاعة الله ، والإعراض عن مقتضى الشهوات ، هو الذى يجلو القلب ويصفيه ، ولذلك قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

٣- أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة ؛ فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً ، فإنه ليس يتضح فيه جليلة الحق ؛ لأنه ليس يطلب الحق ، وليس بمخادياً بمرآته شطر المطلوب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية ، أو بتهيئة أسباب المعيشة ، ولا يصرف فكره إلى التأمل فى حضرة الربوبية ، والحقائق الخفية الإلهية ، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه ، من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس ، إن كان متفكراً فيها ، أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها .

وإذا كان تقييد الهم بالأعمال الصالحة ، وتفصيل الطاعات ، مانعاً من انكشاف جليلة الحق ؛ فلا ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها ، فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقى .

٤- الحجاب . فإن المطيع القاهر لشهواته ، المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق ، قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه من الصبا على سبيل التقليد ، والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ؛ ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضاً حجاب عظيم حجب به أكثر المتكلمين ، والمتعصب للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المفكرين فى ملكوت السموات والأرض ؛ لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية ، جمدت فى نفوسهم ، ورسخت فى قلوبهم ، وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق .

٥ - الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب ؛ فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالجهول ، إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه ، حتى إذا تذكرها ، ورتبها في نفسه ، ترتيباً مخصوصاً^(١) ، يعرفه العلماء بطريق الاعتبار ؛ فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب ، فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ؛ فإن العلوم المطلوبة التي ليست نظرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة ؛ بل كل علم لا يحصل إلا من علمين سابقين ، يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص ، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث ، على مثال ما يحصل التاج من ازدواج الفحل والأثني .

ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة ، لم يمكن ذلك من حمار وبعير وإنسان ، بل من أصل مخصوص من الخيل : الذكر والأثني . وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص . فكذلك كل علم ، فله أصلان مخصوصان ، وبينهما طريق الازدواج ، يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب .

فالجهل بتلك الأصول ، وبكيفية الازدواج ، هو المانع من العلم .
ومثله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها ، بل مثاله : أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلاً في المرأة : فإنه إذا رفع المرأة بلزاء وجهه ؛ لم يكن قد حاذى بها شطر القفا ، فلا يظهر فيها القفا . وإن رفعها وراء القفا وحاذاه ؛ كان قد عدل بالمرأة عن عينه ، فلا يرى المرأة ولا صورة القفا . فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا ، وهذه في مقابلتها ، بحيث يبصرها ، ويرى مناسبة بين وضع المرأتين ، حتى تنطبق صورة القفا في المرأة المحاذية للقفا ، ثم تنطبق صورة هذه المرأة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين ، ثم تدرك العين صورة القفا .

فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة ، فيها ازورارات وتحريفات ، أعجب مما ذكرنا في المرأة ، يعز على بسيط الأرض من يهتدى إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات^(٢) .

(١) يعنى بذلك الطريقة المنطقية كما صرح بذلك في معارج القدس ص ١٠٢ .

(٢) يؤخذ منه نظره إلى المنطق أهمية وصعوبة . وقد طرح الفزالي الوثوق بعلم من لم يكن ملماً بالأمم

دقيقاً ، بمسائل المنطق الرئيسية ، فقال في ص ٧ ج ١ من المستصنى :

فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب ، من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ؛ لأنه أمر رباني شريف ، فارق سائر جواهر الموجودات ، بهذه الخاصية والشرف ، وإليه الإشارة بقوله عز وجل . « إنا عرضنا الأمانة . على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان . » .

إشارة إلى أن له خاصة تميز بها عن السموات والأرض والجبال ، بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى . وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد . وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ، ومطيق لها في الأصل ، ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها ، والوصول إلى تحقيقها . الأسباب التي ذكرناها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم

= ونذكر في هذه المقدمة مدارك العقول ، وانحصارها في الحد والبرهان ؛ ونذكر شرط الحد الحقيقي وأقسامها ، على مناهج أوجز ما ذكرناه في كتاب « محك النظر » وكتاب « معيار العلم » وليست المقدمة من جملة علم الأصول ، ولا من مقدماته الخاصة به ، بل هي مقدمة العلوم كلها . ومن لا يثق بها فلا ثقة بعلومه أصلاً .

غير أن هذا التصريح أغضب كثيراً من العلماء ، خصوصاً ابن الصلاح . قال ابن السبكي في « رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب » :

« واعلم أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي - سقى الله عهده - افتتح كتاب المستصون متطيقاً ، وقال : هذه مقدمة في العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً .

واختلف أهل العلم والذين بعده ، فذكر الشيخ أبو عمرو بن الصلاح ، أنه سمع الشيخ « يونس » يحكي عن الإمام « يوسف الدمشقي » أنه كان ينكر هذا القول ويقول : فأبو بكر وعمر وفلان ، يعني أن أولئك السادة عظمت حظوظهم من العلم واليقين ، ولم يحيطوا بهذه المقدمة . ثم أفتى ابن الصلاح بتحريم الاشتغال بالمنطق . وقال : هو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشرير الاشتغال بعلمه وتعلمه ، مما أباحه الشرع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين ، والأئمة والسلف الصالحين ، وسائر من يقتدى بهم من أعلام الأمة وساداتها ، وأركان الملة وقادتها ، قد برأوا من معرفة ذلك وأدناسه ، وطهرهم من أوضاره .

وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية ، فن المنكرات وليس بالأحكام الشرعية - والله الحمد - افتقار إلى المنطق أصلاً ، وما يزعجه المنطق للمنطق ، والبرهان ، قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن ، لا سيما من خدم نظريات العلوم الشرعية ، والشرعية وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق انتبى وتابعه غير واحد « اهـ .

نقلا عن نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٤٥٥ خصوصية ، وأوراق الكتاب غير مرقومة ، في الصحيفة الأخيرة من الملزمة الأولى .

« كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه » .
 وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحمون على قلوب بني آدم ،
 لنظروا إلى ملكوت السماء » إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب ،
 بين القلب وبين الملكوت . وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضی الله عنهما
 قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أين الله ؟ ! في الأرض أو في السماء ؟ ! ،
 قال « في قلوب عباده المؤمنين » .

وفي الخبر قال الله تعالى « لم يسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدى
 المؤمن ، اللين الوداع » .

وفي الخبر أنه قيل يا رسول الله ، من خير الناس ؟ ، فقال « كل مؤمن
 محموم القلب » فقيل ، وما محموم القلب ؟ ! فقال « هو التقي النقي ، الذى لا غش
 فيه ولا بغى ، ولا غدر ولا غل ولا حسد » . ولذلك قال عمر رضی الله عنه « رأى
 أبى ربي » إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين
 ، تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه ، فبرى جنة عرض بعضها السموات
 الأرض ، أما جعلتها فأكثر سعة من السموات والأرض ؛ لأن السموات والأرض
 عن عالم الملك والشهادة ، وهو إن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف ،
 متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت ، وهى الأسرار الغائبة عن مشاهدة
 سار ، المخصوصة بإدراك البصائر ، فلا نهاية له ، نعم الذى يلوح للقلب
 دار متناه ، ولكنه بالإضافة إلى نفسه وإلى علم الله لا نهاية له .

جملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة ، تسمى الحضرة الربوبية ؛
 لحضرة الربوبية ، محيطية بكل الموجودات ؛ إذ ليس فى الوجود شىء سوى
 على وأفعاله ؛ ومملكته وعبيده من أفعاله .

ثما يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة بعينها عند قوم^(١) ، وهو سبب استحقاق

(انظر تعريفه للجنة ، واعتباره إياها ما يتراخى للقلب ، فإذا ضمت هذا إلى ما قاله فى هذا
 سـ ، من أن القلب هو « الطيفة الربانية المدركة ، الكائن المجرد » فربما خرج منه أن الجنة أمر
 وأرحفه نصيب . وقوله « المخصوصة بإدراك البصائر » واضح أيضاً فى أن الجنة مما لا يدرك بالحواس =

الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه في الجنة ، بحسب سعة معرفته ، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله .

وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها ، تصفية القلب وتزكياته وجلاءه ، قد أفلح من زكاها .

ومرادُ تزكياته ، حصول أنوار الإيمان فيه . أعنى إشراق نور المعرفة ، وهو المراد بقوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » بقوله « أفمن شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ؟ ! » .

ولقد لفت نظري من هذه العبارة السابقة قوله « بل كل علم لا يحصل إلا من علمين سابقين » ، فهذه العبارة صريحة في أن تحصيل العلم — سواء في ذلك علم الأنبياء والأولياء ، وسواء في ذلك علم العلماء والحكماء — إنما يكون بواسطة الاستنباط والاستنتاج .

وبمثل ذلك صرح أيضاً في كتابه معارج القدس^(١)، حيث قال « إن العلوم التي ليست ضرورية ، لا تحصل إلا بواسطة الحد الأوسط ، سواء في ذلك العلماء والأنبياء ؛ غاية ما هنالك أن هذا الحد الأوسط ، تارة يطلب ويشتاق إليه ، ويعمل كمال الحد في طلبه ؛ وتارة يحصل بالحدس دفعة واحدة » .

وهذا إن صحح بالنسبة للعلماء والحكماء فلن يصحح — على مذهبه — بالنسبة للأنبياء والأولياء ، فإن الأنبياء يطلعون على اللوح المحفوظ ، فيرون فيه الحقائق ناصحة ، فليسوا بحاجة إذن إلى الاستنباط والاستنتاج . أليس يقول عنهم فيما مر : « لا يدرون من أين حصل لهم العلم ولا كيف حصل » فما لهم وللمنتطق إذن ؟ !! وما لهم والاستنباط !! .

وهل الرجل السوداني الذي ينزل عليه المطر شديداً قويا ، ويدرك ذلك بالمشاهدة والعيان ، يحتاج إلى ما يحتاج إليه المصري من أعمال العقل ومحاولة

= فتأمل . ثم انظر إلى جملة الجنة حنينين :

إحداهما ، مشاهدة عالم الملك والملكوت ، مشاهدة قلبية .

والأخرى ، ما يكون هذا مقدمة له ، وهو الخطوة بلقاء الله ، والقرب منه ، قرباً بالرتبة والشرف ، لا بالمكان والمسافة .

الاستنباط ؟ ! ضرورة بعده عن مواقع الأمطار ، فيضطر إلى أن يقول :

١ - إن النيل سريع متدفق ، وإنه يحمل معه كميات كبيرة من الغرين .

٢ - وهذا راجع إلى كثرة المياه .

إذن فلا بد أن يكون مطر السودان شديداً كثيراً .

كذلك النبي أو الوالي الذى يطلع على اللوح المحفوظ ، فيدرك فيه مثلاً أن العالم محدث ، فهل تكون به حاجة إلى أن يروح فيفتش في هذا العالم لي شاهد :

١ - أنه متغير من حال إلى حال .

٢ - وإلى أن يقدر زناد فكره ليدرك أن المتغير من حال إلى حال محدث .

ثم يقول : يلزم من ذلك أن العالم محدث .

نعم لا حاجة إلى ذلك وإلا كان مثله مثل السوداني الذى يدرك بالمشاهدة أن المطر شديد قوى ، ثم يهمل تلك المشاهدة ، ويكلف نفسه الرحلة إلى الأراضى المصرية ؛ ليرى أن النيل سريع متدفق ، وأنه يحمل معه كميات كبيرة من الغرين ؛ فيقول يلزم من ذلك أن يكون المطر في السودان شديداً كثيراً .

وهذا عمل فيه جانب كبير من العبث من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه إهمال للجانب الأقوى ، وجرى وراء الجانب الأضعف .

وإعل مما يخفف من حدة هذا الاعتراض ما ذكره الغزالي في معارج القدس^(١)

قائلاً :

[فيمكن إذن أن يكون شخص من الناس ، مؤيد النفس بشدة الصفاء ، وكمال الاتصال بالمبادئ العقلية ، إلى أن يشتعل حدساً في كل شيء ، فيرتسم فيه الصورة التى فى العقل الفعال ، إما : دفعة ، وإما قريباً من دفعة ، ارتساماً لا تقليدياً ، بل يقينياً مع الحدود البسطى ، والبراهين اللائحة ، والدلائل الواضحة] .

فالغزالي لا يكتفى في معارف الأنبياء ، بأن يدركوا مجرد الصور التى تنطبع في نفوسهم ، إذ يجوز أن تكون تلك الصور خواطر مشوشة ، وخیالات فاسدة ، فلا بد مع ذلك أن يكونوا مزودين بالدلائل الواضحة ، والبراهين القاطعة .

ولعل هذا هو السبب في اعتبار الغزالي الجهل بالمنطق ، بعض الحجاب الذي يحول بين الأنبياء والأولياء ، وبين اللوح المحفوظ .

• • •

ولعل مما يخطر بالبال في هذا المقام هذا السؤال : هل الكشف الصوفي في نظر الغزالي طريق لمسائل ما وراء الطبيعة وحدها ؟ ! أم هو طريق للمسائل الأخرى أيضاً ؟

الواقع أن الغزالي — كما سبق القول — كان معنياً بمسائل ما وراء الطبيعة فقط ، وبعد البحث لم يطمئن إلى طريق يوصل إليها ، سوى الكشف ، حتى العقل نفسه لم يرضه طريقاً لها ، وإن رضيه طريقاً للحقائق الأخرى .

فالذي للغزالي بصدد هذا ، هو النص على أن الطريق الوحيد لمسائل ما وراء الطبيعة هو الكشف ، والنص على أن العقل ثقة فيما عدا ما وراء الطبيعة . أما أن الكشف الصوفي يصلح لما عدا ما وراء الطبيعة ، فهذا ما ليس للغزالي فيه نص .

غير أنني أستطيع أن أستنبط رأيه في هذه المسألة استنباطاً ، إذ قد قرر في كتابه « الإحياء » أن للعقل طاقة محدودة ، تجعله لا يتسع لكل شيء ، فمن وجه عنايته مثلاً لعلوم الدنيا ، قلّ حظه من علوم الآخرة ، ومن وجه عنايته إلى علوم الآخرة ، قلّ حظه من علوم الدنيا ، ولا يستطيع أن يضطلع بصنفي العلوم إلا عقل مؤيد بالوحي والإلهام ، معد لإرشاد الناس وإصلاحهم . كعقل الأنبياء .

قال (١) :

[والعلوم العقاية تنقسم إلى دنيوية وأخروية . فالدنيوية كالم الطب والحساب والهندسة والنجوم ، وسائر الحرف والصناعات ، والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال ، والعلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله . وهما علمان متباينان : أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه ، قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر . . .]

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة ، جهالاً في أكثر علوم الآخرة ، لأن قوة العقل لا تنفي بالأمرين جميعاً في الغالب ، فيكون أحدهما مانعاً من الكمال في الثاني . . .

فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين ، لا يكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عبادته في معاشهم ومعادهم ، وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس ، المستمدون من [القوة الإلهية ، التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق بها] .

هذا ما يقوله الغزالي ، ومعروف على رأيه أيضاً ، أن الأنبياء يتأقنون معارفهم بطريق الكشف لا بطريق الاستنباط ، فيكون الكشف إذن وسيلة لإدراك الحقيقة من أى نوع .